الخاتمة

الخاتمة

كانت هذه رحلة مع ابن خفاجة رأينا خلالها الخطاب الشعرى عنده ، ووقفنا على أهم خصائصه الأسلوبية . ولا شك أن الموضوع كان أقرب ما يكون إلى مغامرة مجهولة العواقب لما يتسم به كل من الموضوع " الخطاب الشعرى " والمنهج " الأسلوبية " من حداثة على الساحة النقدية . وقد زادت حدة هذه المغامرة حينما طبق الباحث هذه النظرية وهذا المنهج على شعر أصولى محافظ هو شعر ابن خفاجة .

وقد اقتضت طبيعة البحث أن ينقسم إلى ثلاثة أبواب ، تسبقه مقدمة ومدخل ويتلوها خاتمة . أما المقدمة فقد عرض فيها لموضوع البحث وطبيعة منهجه ، وكيفية تناوله . وفى مدخل الدراسة عرض لمفهوم الخطاب الشعرى . وقد فرق الباحث بين مستويين من الخطاب : الخطاب الشعرى والخطاب العادى . فالأول الهدف منه التأثير من خلال المجاوزة أو الانحراف أو المجاز ، بينما الثانى هدفه الإقناع من خلال لغة وضعية ميسورة للجميع .

وأكد الباحث أن ثمة تكاملا بين المستويين ، إذ يمثل الخطاب العادى المستوى الذى ينحرف عنه أو يتجاوزه الخطاب الشعرى . لذا فهو يعتبر الخلفية المرجعية للخطاب الشعرى .

على المستوى الموسيقى .. موسيقى الإطار (الأوزان والقوافى) كشفت الدراسة اتجاه الشاعر نحو البحور الطويلة المقاطع خاصة " الكامل والطويل " وقد أرجع الباحث هذا إلى قدرة هذه البحور على استيعاب التدفق الانفعالى والانثيال الشعورى للتجربة الخفاجية .

فى حين أهمل بحورا مثل " المضارع والهزج والمقتضب والمتدارك " فلم ينظم فى أى منها شيئا من شعره . بل إنه لم يعط اهتمامه لبعض البحور التى أولاها سابقوه كثيرا من اهتمامهم . مما يؤكد تفرد الأداء الموسيقى عند ابن خفاجة .

يؤثر الشاعر البحور المركبة (المكونة من تفعيلتين) على البحور البسيطة (المكونة من تفعيلة واحدة) وذلك حرصا منه على الثراء النغمى .

لم يعد ثمة ارتباط بين البحور والأغراض الشعرية ، وإنما أصبح المعيار هو مدى قدرة المبدع على صياغة التجربة بالشكل الذى يضمن للخطاب مبدأى التوصيل والتأثير فى المتلقى ليلج هو الآخر إلى عالم التجربة الشعرية ، ينفعل بها ولها فى آن .

أما عن قوافيه : فقد تميزت بالتنوع بين المطلقة والمقيدة وقد ارتفعت نسبه ورود المقيدة كثيرا عن مثيلتها ، إذ بلغت ٩١,٦٥١ % وقد أرجع الباحث هذا إلى ما تتميز به حروف اللين من وضوح سمعى .

وقد كانت حركة الكسرة هى أكثر حركات الروى شيوعا فى خطابه ،إذ تمثل ٣٧% من جملة شعره .

لا يوجد أى علاقة بين روى معين وغرض شعرى معين أو عاطفة بعينها يحملها هذا الروى أو يوحى بها . وإنما يرجع اهتمام الشاعر بروى معين إلى موقع هذا الروى من الجذر اللغوى دون غيره ، حيث يكثر وروده فى أواخر جذور الكلمات .

يمثل العنصر النحوى والصرفى أهمية كبيرة فى بناء القافية عنده ، بحيث يصعب استبداله بخيارات أسلوبية أخرى .

أما الفصل الثانى فقد تناول الباحث فيه موسيقى الحشو الموسيقى الداخلية ، وبينت الدراسة أن :

إسهام البديع واضح فى الخطاب الشعرى عند ابن خفاجة ، ويشكل جانبا هاما فى موسيقاه يخرج به عن كونه مجرد حلى وزخارف لفظية لتؤدى وظائف دلالية وشعورية خاصة.

تتداخل الظواهر الموسيقية داخل البيت الواحد عند الشاعر لتخلق غابة كثيفة من الموسيقى يصاحبها نفس الدرجة من التكثيف الدلالى .

من أهم ظواهر البديع التى تشكل موسيقى الحشو عنده : رد الأعجاز على الصدور، والتصريع ، والترصيع ، واللف والنشر . وهى ظواهر أدانية على المستويين الموسيقى والدلالى .

تميزت موسيقى الحشو عامة عنده بالسهولة والبعد عن التكلف والتعقيد مما يؤكد حرصه على مد قنوات الاتصال بينه وبين المتلقى ليشاركه تجربته الشعرية ويكون بذلك قادرا على خلق عالم النص الخاص به هو باعتباره عالمه الخاص به .

الباب الثانى (المستوى التركيبى) تناول الباحث أهم ظواهر التركيب عنده وهى : التقديم والتأخير ، والاعتراض ، والحذف . وبينت الدراسة أن :

ظاهرة التقديم والتأخير هى أخصب الظواهر التركيبية وأكثرها انتشارا فى شعره ، وقد جاءت معظم ظواهر التقديم والتأخير لتحقيق غايات معينة بعضها موسيقية ايقاعية يحقق بها ظاهرة من ظواهر البديع أو يصل من خلالها إلى مقطع القافية ، وبعضها الأخر دلالى: كتخصيص المعنى أو تعميمه ، أو تأكيده وتقريره .

تعد ظاهرة تقديم الجار والمجرور أكثر ظواهر التقديم والتأخير انتشارا فى شعره . وقد أرجع الباحث ذلك إلى طبيعة الجار والمجرور التى لا تتقيد برتبة معينة فى السياق التركيبى ، بما يسمح للمبدع أن يحركها أفقيا كيفما شاء .

أما فى الأسلوب الشرطى فالظاهرة تحقق غايات أخرى مثل : تشويق المتلقى إلى جواب الشرط عندما يتأخر أو إبراز أهميته عندما يتقدم .

الفصل الثانى : تناول ظاهرة تركيبية أخرى هى (**الاعتراض**) وهى ظاهرة كثيرة الشيوع فى شعره ، وقد أوضحت الدراسة أن هذه الظاهرة لم تمنع من انثيال وتدفق التجربة الشعرية ، وإنما ساهمت فى تكثيف الدلالة وتعميق الخطاب وقد شكل (الجار والمجرور) ، (والظرف) الدور المحورى فى تشكيل هذه الظاهرة .

أما الفصل الثالث فقد تناول الباحث فيه أهم ظواهر **الحذف** من خلال حذف العمد ، والفضلات ، والحروف ، والحذف فى الأسلوب الشرطى .

وقد ألفى الشاعر يستغل طاقات هذه الظاهرة لتكثيف الدلالة وتعميقها حرصا على تجنب التكرار المجوج الذى يؤدى إلى ترهل التركيب وضعف العبارة .

كما أنه من السهولة بمكان ، بحيث لا يؤدى إلى إبهام المعنى على المتلقى ، وإنما يجعل منه إيجابيا فى إنتاج الدلالة للولوج إلى عمق الخطاب الشعرى .

أما الباب الثالث (الصورة) فقد كانت انعكاسا شعوريا لابن خفاجة عكست تصوره للعالم وتصور العالم له . وقد كان محور الطبيعة بابا منفتحا فى شعره منفعلا بها ، متفاعلا معها ، مازجا بينها وبين روحه العزبة الشفافة .

وكذلك محور الزمن الذى جسد من خلاله مأساة الإنسان معه من خلال المشيب والفراق والغربة . وقد يجمع بين هذه الدوال فى تجربة واحدة ليزيد من حدة هذه المأساة .

وقد شغل محور الحرب أهمية خاصة فى صوره ، وقد كشف هذا المحور عن فروسية الشاعر وعشقه للبطولة إضافة إلى رقة ورهافة ذوق ، خاصة عندما يوظف دوال هذا المحور فى سياق الغزل .

أما الخمر فقد كانت أقل المحاور فى شعره ، وجاءت صورها خلال وصف الساقى أو مجلس الأنس والسمر .

أما فى الفصل الثانى : فقد تناول الباحث آليات بنية الصورة .

وهى وسائل أسلوبية يوظفها الشاعر فى بناء صوره على طريقة خاصة مميزة ومن خلالها يضع الشاعر بصمته التى يعرف من خلالها .

أهم هذه الآليات كان التشخيص والتجسيم اعتمادا على التصوير الاستعارى إذ تمثل الاستعارة أكثر من ثلثى صوره الجزئية .

وفى حين يمتد التشخيص ليشكل صورا نامية ممتدة نجد التجسيم يقتصر على رصد الصور البسيطة الجزئية . وقد أرجع الباحث ذلك إلى طبيعة التجسيم الذى يحيل المعانى المجردة إلى مدركات حسية لا قدرة لها على الفعل والديناميكية .

أما المفارقة التصويرية فقد استطاع من خلالها أن يرصد حقيقة البشر والحياة التى تجمع بين المتناقضات لأن التناقض هو جوهر الوجود .

ثم جاء الفصل الثالث ليرصد أهم السمات الأسلوبية العامة للصورة عنده ، وهى سمات اعتمدت على مبدأ تكامل الأداء ومستويات الإبداع عنده لذا لم تهمل الأجزاء وإنما تناولتها فى إطارها التشكيلى الكلى . تأكيدا على تكامل المستويات الأسلوبية فى خطابه الشعرى.

وبعد ...

فهذه محاولة أرجو أن تكون أضافت جديدا إلى الدراسات الأسلوبية ، وإلى شعر ابن خفاجة ... فإن أحسنت فمن الله ، وإن الأخرى .. فحسبى أنى اجتهدت ، وفوق كل ذى علم عليم. والله أسأل السداد فى القول والفكر والعمل .. وهو حسبى .. ونعم الوكيل .